أمواج هائجة

قصة

آلاء شريف

أمواج هائجة

مقدمة

تتراقص قلوب البشر تارة بالفرح وأخرى بالحزن، أما عن قلبها فكان مُتعبًا، مُلازمهُ الأول والأخير هو الخوف. روحها أصبحت كآلةٍ حديديةٍ أنهكها الزمن وغلَّفها بطبقةٍ تجعل من يراها يُقسم بأن الزمن قاسٍ ومُخيف.

جميع القصص التي لا ترىٰ النور، بين سُطورِها وطيّات صفحاتِها قوة، تدفع بها خوفك وأفكارك لرحلة فردية مُبهمة، ليس بإمكانك استكمالها أو الرجوع عنها أو تخطي "**خوفك**".

دروب أفكارنا تأخذ منّا العديد من مشاعرنا، إما أن تحملنا وتُحلّق بنا في فضاء أحلامنا، أو تقذفنا في أمواج هائجة لا سبيل للنجاة منها.

استيقظت مارية كعادتها قُبيل الفجر بساعة، ثم تضرعت إلى الله تُناجيه بقوة أن يُبعد عنها تلك الوساوس اللعينة! والتي دائمًا ما تبُث الرُعب إلى قلبها، أحضرت كوبًا من القهوة الساخنة علّها تُخفف من برودة يديها قليلًا، ودلفت لشرفتها تستمتع بنسيم الهواء المُنعش الذي يُداعب وجهها بخفة، وتطايُر ورقات الشجر بهدوء، كان كل شيء هادئًا عدا عقلها، كان مليئًا بالضجيج والصخب، ودائمًا ما تهزمها أفكارها وتجعلها مُغيّبة تمامًا عن الواقع، وتقذفها بين تلك الأمواج الهائجة.

انتشلها أذان الفجر من بقاع أفكارها المُتعبة، فتوجهت لأداء فريضتها بهدوء.

الساعة الثامنة صباحًا

تجهزت مارية للذهاب للجامعة، تدرس بكلية الحقوق جامعة الإسكندرية، وقبل السير في طريقها فكرت بالذهاب برفقة صديقتها المُقرّبة "ليان"، ثم همّت بالإتصال عليها فأجابتها الأخرى قائلة:

- مرحبًا مارية كيف حالكِ صديقتي؟

أجابتها بهدوء يُنافي خوفها الذي كان يجتاحها، فلا زالت تشعُر بشيء يُقلقها:

- في زحام من النِعَم وأنتِ كيف حالِك؟ هل جهزتِ نفسكِ لتسليم البحث المُطالب منّا؟

ردت ليان قائلة:

- بلى، أشعُر بأننا سنحصل على درجاتٍ عالية.

سألتها مارية بمزيد من الدهشة:

- وكيف ذلك؟

ردت ليان بمرح:

- بدُعاء الوالدين يا صديقتي.

قهقهت بشدة ثم تناست خوفها وقالت:

- حسنًا، خلال عشر دقائق سأمُر عليكِ لآخذكِ، استعدي لا نُريد أن نتأخر أكثر من ذلك.

فتابعتها بجدية:

- حسنًا، مع السلامة.

ثم ذهبت كلتيهما للجامعة في جو يتخللهُ الضحك والمرح كعادتهما.

لم تكن الحياة شديدة الرُعب عندما كنا صغارًا، ولكنها أصبحت مُخيفة تؤلمنا أكثر مما نحن عليه، مرة عند تحطم أحلامنا وأخرى عند انتزاعها لحياتنا البسيطة فتُصبح مُتعِبة وبشدة.

في إحدى ليالي يناير الباردة، كانت كلًا من مارية وليان تدرُسان سويًا، استعدادًا لاختبارات منتصف العام، وبعد مرور خمس ساعات متواصلة من الدراسة، قالت ليان في ملل:

- مهلًا مهلًا، لقد مللتُ من الدراسة وبشدة.

فردت مارية عليها:

- وأنا حقًا لا أحبذ هذه المادة نهائيًا، ليان أتتذكرين الكابوس الذي كان يراودني مُنذ فترة؟

"كُنت أسير إلى جانب صديقتي ليان في طريقنا للجامعة، كانت ترتدي فستانًا ناعمًا باللون الأبيض وتضحك وتقهقه بشدة بصورة لم أعهدها من قبل! ثم أخذت بيدي وأصبحنا نركض سويًا، وفي يدي الأخرى قطة بيضاء لطيفة، لكن عند وصولنا لنصف الطريق تركتني ليان وقالت لي وهي ذاهبة:

استمري في طريقك، ثم.. استيقظت بفزع!"

ردت ليان بعدما تذكرت:

- نعم أتذكرهُ، هل أتاكِ مرة آخرى؟

أجابتها مارية بإرهاق جلي على ملامحها:

- نعم ولكنكِ كنتِ تنظُرين لي بنظرات لم أفهمها أبدًا.

فقالت ليان في محاولة منها لامتصاص خوفها وبث الطمأنينة في قلبها:

- عساه خيرًا مَن يدري؟ لعلي أُسافر لتركيا وأستدير لكِ قائلة يا فقيرة.

قالت جملتها وهي تقهقه بقوة، فتابعتها مارية ضاحكة:

- هيا لنعود لاستكمال الدراسة يا حمقاء، لم يتبقَّ من الوقت سوى القليل.

ثم شرعتا كلتيهما في مواصلة دروسهن.

تسخر منا أقدارُنا عندما تعلم ماذا نُريد فتُخالف توقعاتنا، تجعلنا مشتتين خائفين آملين ألا يلحق أي مكروه بأحبائنا الذين نرىٰ على وجههم النقاء والوفاء.

كعادتهن استيقظت كلًا من مارية وليان قُبيل الفجر، ثم تضرعتا إلى الله سُبحانه وتعالى تطلبان منه أن يرزقهن التوفيق، لديهم اختبار في مادة "تاريخ النُظم الاجتماعية والقانونية"، ولم تكُن من المواد المُفضلة لديهن أبدًا، ثم شرعت كلتيهن للذهاب للجامعة، وبعد التقائهن ببعضهما أخذن يسيران في جو مليء بالإرهاق والتوتر، لأنهن لم يحظَوْن بنومٍ كافٍ.

قالت ليان بإرهاق ونبرة ناعسة بعض الشيء:

- مارية، انتظريني هُنا سأعبُر الطريق وأشتري كوبَين من القهوة.
- حسنًا.

قالتها مارية، ثم أخذت تُطعم قطة بجانبها وتلعب معها، قطة بيضاء ذات فرو كثيف بعض الشيء ولكنها كانت لطيفة.

عند ليان كان مَحَلُّ القهوة مكتظ بالأشخاص، وبصعوبة استطاعت أن تجلب كوبَين من القهوة، وعندما كانت تعبر الطريق أرادت وضع محفظتِها بداخل الحقيبة، لكن قد وقعت من يدها في منتصف الطريق، وحين حاولت الانحناء لالتقاطها، أتت سيارة قادمة سريعة من خلفها، وأطاحت بها وسط فزع الناس وصرخاتهم.

كانت مارية تسمع صراخ الناس ولم تفهم شيئًا لأنها كانت مشغولة مع القطة، ثم اقتربت من مكان الحادثة مندهشة والطريق كان مزدحمًا وبشدة، لم تستطع رؤية الحادثة بشكل كامل ولكنها لمحت حقيبة ليان المميزة مندثر عليها قطراتٍ من الدماء!

حاولت أن تتحدث مع نفسها وتنفي ما حدث، لا لا بالتأكيد ليست هي، كلمات تُحاول بها التغطية على ما رأته. كانت كلما اقتربت أكثر من الحادثة يرتجف جسدها بقوة من الخوف، وما إن رأت مارية فستان ليان يملئهُ الدماء هوت على ركبتيها من الصدمة، لم تستطع قدماها إسعافها للنهوض، وأغمضت عينيها بقوة رافضةً تصديق ما حدث، فجأة مرَّ بذنها كل ذكرياتهنَّ معًا:

- أشعُر بأننا سنحصل على درجاتٍ عالية.
- وكيف ذلك؟
- بدُعاء الوالدين يا صديقتي.

.....

- مارية لا أُريد البدء بدراسة تاريخ النظم الاجتماعية والقانونية، ما رأيكِ أن نبدأ بمادتي المُفضلة؟ وافقت مارية ثم بدأت ليان تدندن بعدما أطاحت بكتاب التاريخ والنظم الاجتماعية وأخذت كتاب اللغة الانجليزية بأحضانها: "أنا رايح فين.. أنا راجع تاني".

وأخذت كلًا منهنَّ تضحكان.

.....

- مارية انظري، لقد قمت برسمي ورسمك في مكاننا المُفضل " البحر".

.....

تذكرَت عندما كُنَّ أطفالًا يركضن وراء بعضهن البعض، وبعدها تذكرت نتيجة الثانوية العامة:

- كانت ليان ومارية تقفزان بفرحة فقد استطاعوا اجتياز الثانوية العامة بمعدل 70٪، ثم صاحت كلتيهما بنفسٍ واحد: "الناجح يرفع ايده هيييه".

****

قلبي يخفق بشدة ويداي ترتجفان بشعور غريب، أكاد ألفظ أنفاسي الأخيرة، مضت دقائق من الزمن سريعًا اكتفيتُ فقط بالتحديق لمحبوبة قلبي وصديقة دربي، لا تستطيع عيناي البكاء، كنتُ أود الاحتفاظ بملامح وجهها للمرة الأخيرة فبكى قلبي.

بعد مرور ثلاثة أشهر

يمضي يومي سريعًا بين ثنايا سطور وصفحات غلَّفها الغُبار، لا يفهمها أحدٌ غيري، كان عقلي واقعًا بين ذكرياتي المؤلمة، وقلبي بين ذكرياتنا الجميلة التي مضت سريعًا.

****

كانت مارية في طريقها للجامعة لاستلام شهادتها، وأثناء مرورها من نفس مكان الحادث تذكّرت كل شيء، وعينيها على وشك أن تجف من كثرة البكاء، ثم دلفت لشئون الطلبة وقامت باستلامها.. كانت تسير بلا أي وجهة، بعقلٍ مُشوّش وقلب تائه حزين.

عادت إلى منزلها فوجدت والدتها بانتظارها، ثم سألتها:

- هل ظهرت نتيجتك؟

هزت رأسها بإيجاب وبوجه خالي من أي تعبيرات:

- نعم، ورسبت في مادتي الانجليزية وتاريخ النظم الاجتماعية والقانونية.

تلقّفت والدة مارية ابنتها بحضنها وأخذت تربت عليها برفق، وكأن الأخرى كانت بانتظار والدتها أن تحتضنها فأخذت تبكي وتشهق بضيق شديد، ظلَّت على هذا الحال ما يقرب من الساعة، ووالدتها ترتل الآيات القرآنية لعلها تُريح قلبها قليلًا.

أصبحت حياة مارية كالطفل **المشرد** التائه بين أزقة الشوارع، بانتظار مَن يرفع بيده ويهون عليه، ولكن الوضع عندما يتعلق بفراق أحبائنا يكون مؤلمًا لدرجة لا تصفها الكلمات.

****

وفي يومٍ ما أراد والديها أن يصطحبوا مارية للسفر معهم إلى إحدى المحافظات الريفية، في محاولة منهم للتخفيف عنها وإبعادها عن هذا الضجيج المؤلم.

وبعد مرور أربع ساعات متواصلين قارب فيهم أذان المغرب، وصلت مارية وعائلتها لمنزل عمتها التي استقبلتهم بترحيب وبسمة مُكلفة:

- أهلًا وسهلًا أنرتم ديارنا.

ثم أخذوا يتبادلان كلمات الترحيب والتساؤل عن الأحوال.

وبعد هنيهة، قالت عمتها باستهزاء:

- وأنتِ يا مارية، بأي كلية تدرسين؟

وكأنها لا تعرف أين تدرس وهي أول مَن عايرها بمجموعها في الثانوية العامة، فأجابتها مارية بهدوء ينفي شعورها بالحزن:

- بكلية الحقوق.

فردت عمتها بفخر:

- ممم، ابنتي أسينات فلذة كبدي تدرس بكلية الهندسة.

فقابلت مارية كلماتها قائلة:

- وفقها الله.

ثم استأذنت من الجميع ونهضت لتؤدي فروضها.. وبعد انتهائها، تكورت على نفسها وأخذت تبكي بحرارة وتدعي ربها بأن يبث الصبر والسكينة بقلبها.

رُفِع أذان العشاء، فتوقفت عن البكاء وكانت في حالة يُرثى ليها، عيناها أصبحت منفوخة من كثرة البكاء والنحيب، ملامحها أصبحت باهته وبشدة، ثم توقف الزمن لديها لبرهة من الوقت عندما سمعت الإمام يرتل القرآن بصوت عذب وهو يقرأ آية لامست قلبها:

- {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ}.

وبعدما انتهت من صلاة العشاء وهي تبكي أخذت تدعوا الله بقلبٍ مكتوم:

- يا رب.. أنت وحدك تعلم ما في نفسي وما في قلبي فأعني يا رب.

لو كان بيدي لأدخلتُ كل أحبتي بين ضلوعي، فإذا أصابهم مكروه، أصابني ضعفهُ.

كانت مارية تخشى على عائلتها أن يعبروا أي طريق، وتخشى أن تراهم مرضى فيفارقوها، كانت لا تستطيع النوم ولا يروق لها بال، الإ عند اطمئنانها على أفراد أُسرتها.

****

بعد طول غياب عدتُ إلى نفسي..

أغمضتُ عيناي وأخرجتُ تنهيدة مُحملة بالكثير من المشاعر التي تكسر الجبال، واتخذت دموعي طريقًا إلى وجهي، يا الله لطفك مُحاط بي دائمًا.

الاثنين/ الساعة الثانية عشر ظُهرًا

كانت مارية تجلس أمام الطبيب النفسي والذي يُعرف بسالم، أخذت تفرك يديها بتوترٍ بالغ، ثم قال سالم في محاولة لامتصاص توترها قليلًا:

- أهلًا وسهلًا أستاذة مارية، كيف يمكنني مُساعدتك؟

ردت مارية بتوتر:

- من أين أبدأ حديثي؟

أجابها قائلًا:

- كما تُريدين، لكن أُريدك أن تعلمي أن نصف علاج المُشكلة هو معرفتها وإصرارك على حلها.

اطمئن قلبها قليلًا ثم أفرغت ما في داخلها:

- أنا طالبة في كلية الحقوق في الفرقة الأولى، أحبُ القراءة والكتابة لأعبر بهما عن جوف ما بداخلي، لدي اثنين إخوتي أولاد كلاهما يكبرانني بسبعة أعوام، أما عن أصدقائي فكان لدي صديقة واحدة تُسمى ليان.

ثم ضمت ركبتيها على صدرها وأمسكت بهما:

- كانت كل حياتي صديقة طفولتي ومُراهقتي وكل فترات عمري، لم تتركني يومًا حزينة، تشاركني كل ما أمُر بهِ، أتذكر عندما كُنا صغارًا كانت تُدافع عني أثناء وقوعي بأي مشكلة، كانت مرحة لأبعد درجة وتحب الخير للجميع، كنا ندرُس سويًا، نلعب سويًا، ونضحك سويًا، ونحكي ونشكي أحزاننا لبعضنا البعض، كانت أقرب لي من نفسي.

توقفت مارية عن الكلام وأخذت تتذكر وتبكي مرة أخرى وشهقاتُها ترتفع أكثر وأكثر.. أشفق الطبيب على حالتها فقال:

- يمكنكِ شرب الماء.

هزت رأسها رافضة ثم أكملت:

- ليس اعتراضًا على قضاء ربي، لكني أقسم أنني أتالم يوميًا، أخشى وبشدة فراق أحبتي مرة أخرى، أخشى النوم لا أحبه أبدًا، كنتُ أنظُر لمن حولي وكأنها النظرة الأخيرة لهم، أخشى عبوري من أي طريق مفتوح، أخشى كل شيء وأي شيء.

هز رأسهُ متفهمًا حالتها تلك ثم أردف بهدوء:

- أتفهم حالتكِ، هذا ما يُعرف بوسواس الموت أو الاضطراب النفسي للموت{Thanatophobia}، وهو ينتُج عن صدمة نفسية بموت أحد معارفكِ فتشعرين طوال الوقت بالخوف للموت سواءً كان لكِ أو لعائلتك.

ثم تابع:

- أولًا: سنتبع العلاج السلوكي المعرفي والذي يهدف لتعليم الشخص المُصاب لطُرق وتقنيات مُعينة، ستُساعدهُ على التغلب على إحساسك بالقلق والتوتر.

ثانيًا: سنتبع العلاج بالحديث.

وثالثًا: سأكتُب لكِ بعضًا من العلاجات الدوائية مثل مضادات الاكتئاب ومضادات القلق.

ورابعًا وأخيرًا: سيكون العلاج أيضًا بالتنفس العميق، كل مرة تخطر ببالك هذه الأفكار عليكِ أن تتنفسي بعمق، وأهم شيء أيضًا عليكِ أن تتعاملي مع هذه الفترة المؤلمة وكأنها شيء لم يكن.

ثم أنهى الطبيب كلامهُ وعادت مارية لمنزلها مطمئنة، عازمةً على تغيير نفسها لأنها قوية لم تستسلم أبدًا في حياتها.

بعد مرور ثلاثة سنوات

داومت مارية على زيارة طبيبها باستمرار، وأيضًا على التصدق لروح صديقتها ليان والدعاء لها يوميًا، وفي الأخير تخرجت من كلية الحقوق بتقدير عام ممتاز.

وفي يوم انضمامها لنقابة المُحامين كانت تستعد جيدًا، لأن هذا اليوم سيأُخذ عهد بينها وبين الله على حفاظِها على مهنتها..

دلفت إلى قاعة النقابة بتوتر، جميع عائلتها متواجدين، ثم نادىٰ عليها نقيب المحامين لرفع القسم، فرفعت كفها وقالت:

"أقسمُ بالله العظيم أن أُمارس مهنتي بأمانة وشرف، وأن أُحافظ على سر المحاماة واحترام القوانين".

وبعد عدة سنوات، تمت مناقشتها للدكتوراة في مادة تاريخ النُظم الاجتماعية والقانونية، وسرعان ما تتذكر ليان وتذمُّرها من صعوبة المادة، لم تنسَها أو تنسَ ذكرياتها قَط.

****

"لم يكُونوا في حياتنا شيئًا عابرًا لننساهم بهذهِ السلاسة وكأننا لم نعرفهم يومًا، لم يكُونوا حلمًا عابرًا، هؤلاء هم من دمعت أعينُنا لأجلهم، هؤلاء هم من رُسمت ضحكاتنا في وجودهم، وهم من سجدنا ندعو الله ألا يفارقونا يومًا، بسماتهُم كانت شفاءً للنفس وبهجةً للروح عندما تفقد بهجتها.. كأنها تعيدك للحياة من جديد."

تمّت بحمد الله